الأبعاد البلاغية في كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي

Dimensional rhetorical in the Book *Proofs in the Koran Sciences* of Imam ZARKASHI

[1] **عباس كراك**, طالب دكتوراه/ [2] د. **غربي بكاي**
المركز الجامعي أحمد بن يحيى الونشريسي
تسمسيلت – الجزائر
kourakabbes77@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018/11/20	تاريخ القبول: 2019/02/08	تاريخ النشر: 2019/05/15

ملخص البحث

لقد اهتمّ الإمام بعلوم البلاغة في كتابه البرهان باعتبارها منطلقا للإحاطة بعلوم القرآن، وليس مقصدا يرتجى منه تعليم البلاغة، فكان التّركيز على الآثار التي يتركها المصطلح البلاغيّ في نفس المتلقّي، والفائدة التي يجنيها استخدام هذا المصطلح في النّصّ القرآنيّ ومن ثمّ تميّز البحث البلاغي لديه بفنّية المصطلح البلاغي دون توسّع شديد في البحث عن حدوده وتفريعاته، لكن هذا لم يمنعه من السّير وفق معياريّة البلاغيّين السّابقين في بعض مباحثه بتناول حدود المصطلح بشيء من التّفصيل، وذلك مقدّمة للوصول لأغراض الفنون البلاغيّة وآثارها،فهو يقوم بتقديم المادّة النّظريّة لمصطلحات البلاغة عند عرضه لآراء مجموعة من العلماء يوضّح بها حدود هذا المصطلح ومفهومه ليصل من وراء ذلك إلى الأغراض التي يؤدّيها مدعما ذلك بالكثير من الشّواهد القرآنية التي يحرص على عرضها وتحليلها لبيان ما أفاده استخدام هذا الفنّ في ذلك الموضع، إذ يوسّع مدارك البحث البلاغيّ بما يحشده من شواهد، ذلك أنّه في مسعاه لمعالجة البلاغة القرآنيّة يتلمّس جانبا من جوانب الإعجاز القرآنيّ الذي تشكّل فصاحته وبيانه مفصلا هامّا من مفاصل إعجازه، ولهذا كان مقصده بيان التّوظيف القرآني لمصطلحات البلاغة العربيّة وإظهارها. وبناء على عملية مسح رياضية قمنا بها خلال هذه الدراسة تبين أن نسبة 41 % من الكتاب يتحدث فيها عن البلاغة ، الشيء الذي جعلنا نصنفه تحت مظلّة البلاغة القرآنية، فقد فصّل ونوّع فيه قضايا قرآنية ،في بحث بلاغي يتفرّع إلى قسمين رئيسين هما: البلاغة التّطبيقيّة، والبلاغة باعتبارها مظهرا إعجازيا و هذا ما سنحاول بيانه وتفصيله من خلال هذا المقال .

– **الكلمات المفتاحية** : البلاغة ؛ الإعجاز ؛ فنية المصطلح ؛ البرهان.

Summary:

The Imam was interested in the sciences of rhetoric in his book Proof as it is considered a starting point for the knowledge of Koran sciences, and not for the sake of teaching rhetoric. Thus, the focus was on the effects left by the term rhetoric in the emotion of the reader and the benefits derived from the use of this term in the Koranic text. Hence, his rhetorical research was distinguished by its conceptual study without diving deeper in its limits and ramifications. However, this did not prevent him from following the standard of the former linguists in some of his subjects by addressing the limits of the term in some detail. This is an introduction to reach the purposes of the rhetorical arts and their effects. He presents the theoretical material of the concept rhetoric when he presents the views of a group of scholars, where he shows the limits of the concept and its meaning so as to reach the roles it fulfils and sustaining that by many evidences from the Koran that he insists on analyzing and displaying so as to indicate the benefits of using this art in that situation. Based on a mathematical survey we conducted during this study it was found that 41% of the book speaks of eloquence, which we have classified under the umbrella of the Qur'anic rhetoric, which has separated and categorized Qur'anic issues in a rhetorical research that is divided into two main sections: And eloquence as a miraculous manifestation and this is what we will try to describe and detail through this paper.

Key words: Eloquence, The art of the concept, Mirracle and proof.

مقدمة:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب المعهودة لديهم، ومع ذلك عجزت قرائحهم عن الإتيان بمثله أو بآية منه، ولقد اهتمّ الباحثون قديما بعلوم البلاغة العربية لِما التمسوه فيها من حاجة ماسّة لمعرفة أحكام الدّين الإسلامي، الذي يحتاج فهمه إلى معرفة ودراية تامّة باللّغة العربيّة عامّة وبالبلاغة على وجه الخصوص، فتركوا لنا ميراثا علميّا وجب المحافظة عليه وتوليد نظريّات بلاغيّة جديدة منه ، خاصة في ظل الإعجاب المفرط بالنّظريات الغربيّة الوافدة .

لذلك أردت الوقوف على آراء الإمام بدر الدين الزركشي (ت 794هـ) أحد العلماء الذين أسهموا في سطوع نور البلاغة ونمو شجرتها الوارفة، من خلال كتابه "البرهان في علوم

القرآن"، والذي لا يوحي عنوانه أنّه من كتب البلاغة؛ ولكنّ أبرز العلوم التي عالجها الإمام فيه عِلم البلاغة، ذلك أنّه شديد الصّلة بالإعجاز القرآني، فقد جمع فيه آراء علماء البلاغة وأرباب البيان، مضيفا إليها ما جادت به قريحته من تحليلات ذّوقية، مبيّنا الأغراض البلاغية التي تثبت إعجاز القرآن الكريم.

إن ميدان دراسة البعد البلاغي في كتاب "البرهان" ميدان رحب واسع بكر لم يتطرق إليه الكثيرون – في حدود اطّلاعي- باستثناء ما وقفت عليه في مبحث الكناية عند الزركشي في كتاب: فصول في البلاغة للدكتور محمد حمدي بركات أبو علي، في حين وقفت على كتب نهلت من كتاب "البرهان" علوما أخرى، مثل كتاب: الإمام الزركشي مفسّرا من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن، للدكتور:جمال فرحان مسعد أحمد، وكتاب: ترجيحات الزركشي في علوم القرآن، للدكتور: غانم بن عبد الله بن سليمان الغانم.

آملا توضيح القضايا البلاغية في هذا الكتاب و تبيين كيفية توظيف هذه القضايا في توضيح وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، و إبراز مدى اهتمام الإمام الزركشي بالبلاغة خدمة للنّصّ القرآني.

فما هي الأسباب والدوافع التي جعلت الإمام الزركشي يؤلف هذا السفر العظيم ؟ وعلى أيِّ نحوٍ تناول الإمام علوم البلاغة في كتابه البرهان في علوم القرآن؟ وما أبرز القضايا البلاغية التي عالجها فيه؟

1- موضوع كتاب " البرهان في علوم القرآن" ومضمونه:

يبحث الإمام الزركشي في كتابه هذا علوم القرآن ومباحثه، إذ تحدّث في المقدّمة عن القرآن الكريم من حيث بلاغته ونظمه، وإعجازه وتميّزه عن كلّ الأساليب، كما بيّن فضل دراسة كتاب الله والإمعان في خصائصه وما احتواه، فهو يرى أنّه «لا يحيط بوصفه – على الإطلاق- ذو اللّسان الطّلق، فالسّعيد من صرف همّته إليه، ووفّق فكره وعزمه عليه، والموفّق من وفّقه الله لتدبّره، واصطفاه للتّذكير به وتذكّره، فهو يرتع منه في رياض، ويكرع منه في حياض»[1].

في الفصل الأوّل ركّز على علم التّفسير، مؤكّدا بأنّه ذروة السّنام التي يرتكز عليها فهم القرآن، ولا يتأتّى لدارسه الفهم إلا من خلال فقه أساليب العرب والإلمام بأشعارها وأمثالها وحكمها لغة ونحوا وبلاغة...

وفي الفصل الثاني تطرّق إلى علوم القرآن مركّزا على التّوحيد والتّذكير والأحكام التي تعتبر أقسام القرآن، معرّجا على سورة الفاتحة، مبيّنا علّة التّسمية، ثم انتقل إلى الحديث عن السّبعة والأربعين نوعا التي نذكر منها: أسباب النزول، علم المناسبة، غريب القرآن ،كون اللّفظ والتّركيب أحسن وأوضح ، الوقف والابتداء، معرفة إعجاز القرآن الكريم، في الكناية والتعريض، أساليب القرآن وفنونه البليغة، ٱلأدوات ومعاني الحروف مما يحتاج إليه المفسر... مؤكّدا في الوقت نفسه أنّه لا يدّعي – أبدا- الإلمام بكلّ نوع فيها – رغم جهوده العلمية – إذ يقول: « واعلم أنّه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه، لاستفرغ عمره، ثمّ لم يُحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كلّ نوع على أصوله، والرّمز إلى بعض فصوله، فإنّ الصّناعة طويلة والعمر قصير»[2].

2- الغاية من تأليف كتاب "البرهان في علوم القرآن":

يرى صاحب البرهان أنّ علماء التّفسير قد نظروا إلى كتاب الله وتطرّقوا إليه من جهة التّفسير، وأنّ علماء النّحو خاضوا غماره من جهة النّحو، وكذلك فعل علماء البلاغة وغيرهم، فأراد أن تكون الغاية من تأليف هذا الكتاب هو جمع تلك الدّرر النّفيسة في كتاب واحد مع تأكيد بعض الأدلّة والبراهين ونفي أخرى، يقول في مقدّمة هذا الكتاب: « ولمّا كانت علوم القرآن لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن، وممّا فات المتقدّمين، وضع كتاب يشتمل على أنواع علومه،كما وضع النّاس بالنّسبة إلى علم الحديث، فاستخرت الله تعالى –وله الحمد- في وضع كتاب في ذلك جامع لما تكلّم النّاس في فنونه، وخاضوا في نكته وعيونه، وضمّنته من المعاني الأنيقة، والحكم الرّشيقة ما يهزّ القلوب طربا، ويبهر العقول عجبا، ليكون مفتاحا لأبوابه، وعنوانا على كتابه، معينا للمفسّر على حقائقه، ومطّلعا على بعض أسراره ودقائقه، والله المخلّص والمعين، وعليه أتوكّل وبه أستعين، وسمّيته: البرهان في علوم القرآن»[3]

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجده يصرّح بالغاية العظمى من هذا الكتاب وذلك في النّوع السادس والأربعين **"في أساليبه وفنونه البليغة"**، « وهو المقصود الأعظم من هذا الكتاب، وهو بيت القصيدة، وأوّل الجريدة، وغُرّة الكتيبة، وواسطة القلادة، ودرّة التّاج، وإنسان الحدقة»[4].

3- البلاغة التّطبيقيّة في كتاب "البرهان":

تتجسّد البلاغة التطبيقية في كتاب "البرهان" في استخراج الفنون البلاغيّة من نصوص معيّنة، وفيها وظّف الإمام الزّركشي مهاراته البلاغيّة وسعة اطّلاعه في استقراء النّصوص واستنباط

فنونها البلاغية. وقد اتّخذ ذلك وسيلة لإظهار براعته في استنطاق الآي واستخراج النّكت البلاغيّة، من ذلك ما ذكره في النّوع السّادس والأربعين (في أساليب القرآن وفنونه البليغة)، تحت عنوان : وضع الظّاهر موضع المضمر، فأشار في بدايته إلى أنه من أقسام الإطناب، «والعجب أنّ البيانيين لم يذكروه في أقسام الإطناب»[5].

ثمّ أورد بيتا من "الكتاب" لسيبويه، وهو قول الشّاعر:

إذا الوحشُ ضَمَّ الوحشَ في ظُلَلاتِها ♣ سَواقطُ من حرٍّ وقد كان أظهرا

يقول الإمام الزركشي بعده: «ولو أتى على وجهه لقال: " إذا الوحش ضمّها"، وإنما يسأل عن حكمته إذا وقع في الجملة الواحدة، فإن كان في جملتين مستقلّتين كالبيت سهُل الأمر، لكنّ الجملتين فيه كالجملة الواحدة، لأنّ الرّافع للوحش الأوّل فعل محذوف كما يقول البصريّون، والفعل المذكور سادّ مسدّ الفعل المحذوف؛ حتى كأنه هو؛ ولهذا لا يجتمعان،وإن قدّر رفع الوحش على الابتداء فالكلام جملة واحدة»[6]. فهو يرى أن الإظهار والإضمار إذا كان في جملة واحدة حسُن وطاب لأن كلّ جملة تقوم بنفسها، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ سورة الأنعام، الآية: 124.

[فإن شاء قال: وهو أعلم حيث يجعل رسالته].

ثمّ بيّن بعدها « أنّ الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة، وأصل المحدّث عنه كذلك، والأصل أنّه إذا ذكر ثانيا أن يُذكر مضمرا للاستغناء عنه بالظّاهر السّابق »[7]، وقد ذكر سبعة عشر سببا للخروج على خلاف الأصل منها[8]:

- قصد التّعظيم: كقوله تعالى: ﴿**لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**﴾سورة الكهف، الآية: 38، فأعاد ذكر الربّ لما فيه من التّعظيم والهضم للخصم.
- الاستلذاذ بذكره: كقوله تعالى: ﴿**وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**﴾ سورة الزمر، الآية: 74، ولم يقل: "منها" ولهذا عدل عن ذكر الأرض إلى الجنّة؛ وإن كان المراد بالأرض الجنّة.
- إزالة اللّبس حيث يكون الضّمير يُوهم أنّه غير المراد: كقوله تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ سورة الفتح، الآية: 06. ، كرّر "السّوء" لأنّه لو قال " عليهم دائرته" لالتبس بأن يكون الضّمير عائدا إلى الله تعالى.

ومن الأمثلة التي تدلّ على أنّ الإمام الزّركشي لم يقف عند حدود ما قاله سابقوه بل أضاف إليها من بنات أفكاره التي تنمّ على سعة اطلاعه، ودقّة استقرائه، قوله في شرط الالتفات: « تقدّم أنّ شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقل عنه؛ وشرطه أيضا أن يكون في جملتين ، أي: كلامين مستقلّين، حتّى يمتنع بين الشّرط وجوابه. وفي هذا الشّرط نظر، فقد وقع في القرآن مواضع، الالتفات فيها وقع في كلام واحد، وإن لم يكن بين جزأي الجملة، كقوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ**﴾سورة الأحزاب، الآية: 50 بعد قوله: ﴿**إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ**﴾، التقدير: إن وهبت امرأة نفسها للنبيء»[9].

ومطالعة متمعّنة في هذا الكتاب –كتاب البرهان– تكشف لنا عدّة أسرار في هذا الباب، منها:

أ-حرص الإمام الزّركشي على تقديم لمحة تعريفيّة لبعض الفنون التي يطرحها.

ب- لم يقف عند حدود تعداد الفنون البلاغيّة وتقديم تعريف لها، إنّما تجاوز ذلك لبيان القيمة الفنّية والإبلاغيّة لذلك الفنّ في موضعه، ومن ذلك ما قرّره في "مشاكلة اللّفظ للمعنى" حيث أورد قوله في آية: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**﴾ سورة آل عمران، الآية: 59.

«ولم يقل«من طين» كما أخبر به سبحانه في غير موضع ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ**﴾ سورة ص، الآية: 71، إنّما عدل عن الطّين الذي هو مجموع الماء والتّراب إلى ذكر مجرّد التّراب لمعنى لطيف؛ وذلك أنّه أدنى العنصرين وأكثفهما، لمّا كان المقصود مقابلة من ادّعى في المسيح الإلهيّة أتى بما يصغّر أمر خلقه عند من ادّعى ذلك؛ فلهذا كان الإتيان بلفظ التّراب أمسّ في المعنى من غيره من العناصر؛ ولمّا أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل أخبرهم أن يخلق لهم من الطّين كهيئة الطّير، تعظيما لأمر ما يخلقه بإذنه؛ إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظّموا قدر النّعمة به»[10].

وبهذا يتوضّح المصطلح البلاغيّ وتظهر جماليّته من خلال ما يؤدّيه من دور داخل النص القرآني.

ج-ذكر الإمام الزركشي في "البرهان" ما وصله من كلام العلماء في النّظم القرآنيّ من أسرار التّقديم والتّأخير والتّأكيد والحذف والإيجاز، والنّكت البيانيّة والأنواع البديعيّة.

ويبقى القول: إنّ هذا الكتاب يضمّ الكثير من التّطبيقات البلاغيّة التي تصلح مداخل لتدريس مباحث البلاغة، ويمكن الاستفادة منها في المناهج التي تسعى لتدريسها .

4- البلاغة مظهر إعجازيّ:

سعى الإمام الزركشي في هذا القسم إلى تقديم البلاغة وتجلية غوامضها وإظهار خصوصيّة الاستخدام القرآنيّ لها باعتبار أنّها من الآليّات الهامّة في مباحث علوم القرآن وإعجازه،فهو لا يسعى هنا إلى طرح المادّة البلاغيّة طرحا تعليميّا يرنو إلى إنشاء المعرفة الكاملة حول البلاغة ومعانيها لدى دارسيها، وإنما يشكّل مادّتها ويرسم معالمها مسلّطا الضّوء على الجانب الجمالي الفنّي والإشراق الأسلوبيّ في توظيف فنونها خدمة للنّصّ القرآنيّ،وبذلك كانت هذه الغاية سببا في تحرّر الإمام نسبيّا من التّأثر بالمدرسة السّكّاكية القزوينيّة، والانطلاق عبر فضاءات أرحب في تناول الفنون البلاغيّة، فجاءت اختياراته من معين العلماء والأدباء الذين يركّزون على أدبيّة البلاغة، وفي الوقت ذاته فهو لا يستغني عن أقوال أرباب البلاغة ذوي الاتجاه الفلسفي.

وسنقف عند مثال يلخّص أهمّ السّمات الخاصّة لبحث البلاغة القرآنية في كتابه"البرهان في علوم القرآن".

من ذلك ما ورد في باب "الاحتراس": الذي هو في اللغة بمعنى الاحتراز والتحفّظ، تقول: « احترس منه: تحرّز. وتحرّستُ من فلان واحترستُ منه بمعنىً أي: تحفّظتُ منه»[11].

أما اصطلاحا فقد عرّفه الإمام الزّركشي بأنْ « يكون الكلام محتملا لشيء بعيد، فيُؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال»[12] ، أي: احترازا من احتمال الشيء البعيد.

ومثّل له بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾سورة المائدة، الآية: 54.،« فإنّه لو اقتصر على وصفهم بالذّلّة وهو السّهولة لتوهّم أنّ ذلك لضعفهم، فلما قيل: ﴿**أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ عُلم أنها منهم تواضع؛ ولهذا عَدَّى "الذّلّ" بـ"على" لتضمّنه معنى العطف»[13].

ويرى أنّ « أعجب احتراس وقع في القرآن قوله تعالى مخاطبا لنبيّه [محمد] عليه السلام: ﴿**وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ سورة القصص، الآية: 44، وقال حكاية عن موسى:﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**﴾ سورة مريم، الآية: 52،

فلما نفى سبحانه عن رسوله أن يكون بالمكان الذي قضى لموسى فيه الأمر عرّف المكان بالغربيّ، ولم يقل في هذا الموضع﴿**الْأَيْمَنِ**﴾ كما قال: ﴿**وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**﴾ أدبًا مع النّبيّ صلى الله عليه وسلم أن ينفيَ عنه كونه بالجانب الأيمن، أو يسلب عنه لفظاً مشتقًّا من اليمن، أو مشاركا لمادّته، ولما أخبر عن موسى عليه السلام ذَكَر الجانب الأيمن تشريفاً لموسى؛ فراعى في المقامين حُسْن الأدب معهما، تعليما للأمة، وهو أصل عظيم في الأدب في الخطاب»[14] .

والإمام الزّركشي في مبحث الاحتراس اكتفى بإيراد الشّواهد القرآنيّة، والتّطبيق عليها، مبيّنا سرّ الاحتراس فيها.

وفي ختام باب الاحتراس يضيف فائدة أنّ « قُدامة عاب على ذي الرّمّة * قوله:

ألا يا اسْلمي يا دار ميٍّ على البلى ♣ ولا زال مُنْهلا بجَرْعَائكِ القَطْرُ

فإنه لم يحترس، وهلاّ قال كما قال طرفة:

فسقى ديارَكِ غيرَ مُفسِدها

وأجيب بأنّه قدّم الدّعاء بالسّلامة للدّار.

وقيل: لم يُرِد بقوله: " ولا زال مُنْهلا" اتصال الدّوام بالسّقيا من غير إقلاع، وإنّما ذلك بمثابة من يقول: ما زال فلان يزورني، إذا كان متعاهدا له بالزيارة»[15] .

ونخلص من هذا إلى أنّ اكتفاء الإمام بالتّطبيق دون إيراد تعريفات أهل البلاغة للمصطلح، كان عن قصد، لأنّ الغاية التي يسعى إليها من خلال المصطلح البلاغي تكمن في الكشف عن أسرار الجمال في آي الذّكر الحكيم، وكذا الوقوف على جوانب إعجازه. ولتحقيق الجانب الفنّي والمتعة الجماليّة للاحتراس في التّعابير الإبداعيّة، لابدّ من الاستخدام الدّقيق له دون تكلّف، ووضعه في سياقه المناسب، لكي يحافظ على تأثيره في المتلقّي.

وفيما يلي نستجلي عناصر البلاغة القرآنيّة في "البرهان" من مصطلحات وشواهد، كيما تكتمل صورة البناء البلاغيّ عنده

5- مصطلحات البلاغة القرآنيّة وشواهدها في كتاب "البرهان":

نشير أوّلا إلى أنّ الإمام قد رصد في كتابه "البرهان" معظم مصطلحات البلاغة العربيّة، لكنّنا سنعرض الآن بعض المصطلحات التي تتعلّق بالنّصّ القرآنيّ، ولها وطيد الصّلة ببنائه وإعجازه دون النّظر إلى باقي المصطلحات البلاغيّة.

قول الدكتور محمد بركات أبو علي :ويقودني هذا إلى دراسة البلاغة القرآنيّة عند الإمام في إطارين[16] .

أ- **البلاغة القاعديّة**: وهي التي تشكّل المادّة البلاغيّة في علوم البلاغة الثّلاث: البيان، والمعاني والبديع، وفيها تتوضّح حدود المصطلح البلاغيّ، وترسم معالمه وأركانه وشواهده.

ب- **البلاغة القِيمِيّة(الفنية)**: التي تهتمّ بالتّفسير العامّ للمادّة البلاغيّة ، ثمّ الغاية المستفادة منها؛ فهي تتناول التّأثير والجوانب الجماليّة والفنّية في المصطلح.

ولا غنى لدارس البلاغة العربيّة عن معرفة القواعد وهي ما يصطلح عليه (البلاغة القاعديّة) ، التي تتحدّث عن :

- تعيين الشّاهد البلاغي .
- تخصيص الموطن البلاغيّ في داخل الشّاهد .
- تعيين نوع المصطلح.

أ- **البلاغة القاعديّة**: يمكن التمثيل لها ببعض المصطلحات منها:

أ-1المناسبة:

لغة: ورد في لسان العرب: « النّسب: القرابة. وفلان يناسب فلانا فهو نسيبه أي: قريبه».[17]

وعرّفها الإمام الزركشي تعريفا لغويا بقوله: «المقاربة و المشاكلة»[18] ، ولم يعرّفها اصطلاحا بل أشار إلى ذلك بعد التعريف اللّغوي بقوله: «وكذلك المناسبة في فواتح السور وخواتمها؛ ومرجعها —والله أعلم— إلى معنى ما رابط بينهما»[19] ، ولعلّه أراد بذلك عدم اختلاف المعنى بين التّعريف اللغوي والاصطلاحي.

ورأى الإمام أنّ مرجعها في الآيات إلى معنى رابط بينها عامّ أو خاصّ، عقليّ أو حسّيّ أو خياليّ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التّلازم الذّهنيّ؛ كالسّبب والمسبّب، والعلّة والمعلول، والنّظيرين، والضّدّين، ونحوه[20] ، وخرج من ذلك لمناقشة ترتيب وضع السّور في المصحف، فأشار إلى أنّه توقيفيّ، وأنّه يكون لأسباب إمّا لفظيّة تعود للبناء اللّفظي لفاتحة السّورة وخاتمة ما قبلها، أو معنويّة تعود للعلاقة الموضوعيّة بين السّورتين[21] ، وقد شرع الإمام الزّركشي بتفصيل العلاقات التي تجعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، وذكر أنّ الارتباط إمّا أن يكون ظاهرا أو غير ظاهر[22] ، ثمّ تحدّث عن القرائن المعنويّة التي تؤذن باتصال الكلام وذكر منها:

التّنظير: «فإنّ إلحاق النّظير بالنّظير من دأب العقلاء»[23]، ومثّل له بقوله تعالى:﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ**﴾سورة الأنفال، الآية:05 ، عقب قوله: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ سورة الأنفال، الآية: 04.

«فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال»[24].

الاستطراد: ومثّل له بقوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ** ﴾[25] سورة الأعراف ، الآية:26،«فذكر بأنّ السّتر باب عظيم من أبواب التّقوى عقب إظهار المنّة فيما خلق الله من اللّباس وستر العورات»[26].

حُسن التّخلص:«وهو الانتقال من حديث لآخر تنشيطا للسامع»[27]،كقوله تعالى في سورة (ص) بعد ذكر الأنبياء: ﴿**هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**﴾سورة ص، الآية: 49، «فإنّ هذا القرآن لماّ أنهى ذكر الأنبياء، أراد أن يذكر نوعا آخر وهو ذكر الجنّة وأهلها»[28] ، وقد أنكر الإمام الزّركشي في هذا السّياق على من نفى وجوده في القرآن ومثّل له بشواهد كثيرة.

وهكذا نجد الإمام الزّركشي في مناقشته لمصطلح المناسبة في القرآن الكريم قد تدرّج به وفصّله سعيا منه لبيان إحكام بناء القرآن وجزالة تركيبه، وحرص من خلال تفصيله لجوانب هذا المصطلح على الاستشهاد له بالآي القرآنيّ.

أ-2 المنطوق والمفهوم:

حدّ المنطوق:« ما هو بيّن بنفسه بلفظ لا يحتاج إلى بيان منه ولا من غيره»[29]، وقد أشار الإمام الزّركشي إلى كيفيّة التّعامل مع هذا المنطوق، فإن أفاد معنى لا يحتمل غيره: فالنّصّ، كقوله تعالى:﴿ **فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** ﴾ سورة البقرة، الآية: 196 ، وإن احتمل معنى مع احتمال غيره: فالظّاهر، نحو قوله تعالى:﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**﴾ سورة البقرة، الآية: 222، «فإنّه يقال للانقطاع "طهر"، وللوضوء والغسل، غير أنّ الثّاني أظهر»[30] ، فإن حمل على المرجوح لدليل نحو تأويل قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾سورة الحديد، الآية: 04، «فقد حمل على الحفظ والرّعاية أو القدرة والعلم لا على المعيّة والقرب بالذّات»[31].

أمّا المفهوم: فهو «ما ليس بيّنا بنفسه فيحتاج إلى بيان»[32]، وبيانه إما فيه في آية أخرى أو في السّنّة لأنها موضوعة للبيان، ككثير من أحكام الطّهارة، والصّلاة والزّكاة، وقد يكون بيانه مضمرا فيه[33] ، كقوله تعالى:﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**﴾ سورة الرعد، الآية: 31، أيْ:« لكان هذا القرآن على رأي النّحويين»[34].

وجليّ أنّ هذا المبحث ذو علاقة متينة بفهم النّصّ القرآنيّ واستنباط الأحكام منه، فهو يفصّل لنا طرق التّعامل مع الكلمة القرآنيّة ومن ثمّ فهْم المدلول من سياقاتها.

أ-3جَدَل القرآن:

أكّد الإمام الزّركشي في بدء مناقشته لأساليب الجدل القرآني أنّ هذا الفنّ موجود في النّصّ القرآنيّ، ولا ينتقص من قدره موردا جهد العلماء في إثبات وجوده، وذكر منه استنتاج النّتائج الصّحيحة من المقدّمات الصّادقة، مستشهدا ببعض الأمثلة القرآنيّة التي تعزّز ذلك ومنها قوله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾سورة الأعراف، الآية: 29، فقد قاس الإعادة على الابتداء[35] ، ولم يشِر في هذا المبحث إلى أنواع الجدل، في حين نجد الإمام السّيوطي(ت 911هـ) قد أشار إلى ذلك في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ومنها:

– السّبر والتّقسيم: ومثاله من القرآن، قوله تعالى: ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ**﴾ سورة الأنعام، الآية: 143، «فإنّ الكفّار لما حرّموا ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى، ردّ الله تعالى ذلك بالسّبر والتّقسيم»[36]، فهو يضع جميع الاحتمالات المؤدّية إلى هذه النتيجة ثم يبدأ بتفنيدها ليصل إلى إثبات خطأ مقولتهم.

– القول بالموجب: وحدّه على رأي بن أبي الأصبع(ت654هـ)«ردّ كلام الخصم من فحوى كلامه»[37]، ثمّ ذكر أنّه على قسمين: أحدهما: أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم فيثبتها لغير ذلك الشّيء، كقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ**﴾سورة المنافقون، الآية: 08 ، وثانيهما: حمل لفظ في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ**﴾ سورة التوبة، الآية: 61.

ومنه التّسليم والإسجال والانتقال والمناقضة ومجاراة الخصم ليعثر، وقد استشهد الإمام السّيوطي في كل نوع بشواهد من آي القرآن[38] .

وحسبنا هذا القدر من المصطلحات البلاغيّة كمثال دالّ على دقّة الطّرح وأسلوب التناول الذي اختطّه الإمام الزّركشي في بحثه للبلاغة القرآنية، وما يلاحظ أنّ خيوط هذا المنهج تتشكّل وفق مسعى يهدف إلى إبراز خصوصيّة القرآن في توظيف هذه المصطلحات والإفادة ممّا تتيحه من تجليات، إذْ «لم يشغل الزركشي التعريف الفلسفي للمصطلح البلاغي، فهو إذا وجد سببا لذكر هذا التعريف ذكره بوضوح ومن غير التواء»[39]،الأمر الذي يدفعه إلى التّركيز في حديثه عن علماء الإعجاز وعن البلاغيّين الذين يهتمّون بأدبيّة البلاغة، مع عدم إهمال آراء الذين اهتموا بالتّحديد والتّقسيم كلّما اقتضى الأمر ذلك، وهو بهذا يبرز السّمات الخاصّة للاستخدام القرآنيّ إذ أن لكلّ كلمة أو ملمح أسلوبي خاصّ جهة استخدام ومقصد لا يتأتّى إلاّ من خلاله.

ب – البلاغة القِيميّة(الفنّية):

كانت البلاغة في مستواها الفنّي الإبلاغيّ أساسا سعى الإمام الزّركشي إلى ترسيخه في بحثه لمصطلحات البلاغة القرآنيّة، فهو الجانب الذي ميّز بحثه لهذا الاتّجاه البلاغيّ، ومازال مقصدا يرنو إلى تجليّته في كل مصطلح يبحثه.

ويمكننا بحث الأغراض التّأثيرية الإبلاغيّة لمصطلحات البلاغة القرآنيّة ضمن ثلاثة محاور:

1. ما يتعلّق بصاحب النّصّ.
2. ما يتعلّق بالمتلقّي.
3. ما يتعلّق ببنية النّصّ القرآنيّ.

فأمّا ما يتعلّق منها بصاحب النّصّ وهو هنا " الله عزّ وجلّ" الذي أنزل النّصّ القرآنيّ على أحكم وجه، غير ذي عوج، فتجيء بذلك مصطلحات البلاغة القرآنيّة فيه لتعظيم اسمه وتشريفه، كما في مسائل التّقديم والتّأخير، ووضع الظّاهر موضع المضمر، أو لتنزيهه كما في الاعتراض أو لقصد إظهار الهيبة، وهكذا تدور هذه المعاني في كثير من مصطلحات البلاغة القرآنيّة وجميعها تنطق بالتوحّد والتفرّد لله سبحانه، ولا يكاد يمرّ مصطلح بلاغيّ دون أن يخدم في جانب منه صورة صاحب النّصّ القرآنيّ –الله–.[40].

وأما يتعلّق منها بالمتلقّي فإنّه تعالى أقرّ تأثير القرآن على النّفوس في قوله:﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ سورة الرّعد، الآية: 28 ، وعلى الجماد حين قال ربّنا:﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾

سورة الحشر، الآية: 21، وبذلك فإنّ«المسامع لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن يسمعه بدّ من الاسترسال إليه والتّوفّر على الإصغاء»[41] .

لقد سعى الإمام الزّركشي من خلال مناقشاته لمصطلحات البلاغة القرآنيّة إلى إبراز إبلاغيّة هذه المصطلحات وتأثيرها في نفوس المتلقّين؛ من ذلك إشارته إلى أن استخدام القرآن للتشبيه يهدف إلى « تأنيس النّفس بإخراجها من خفيّ إلى جليّ، وإدنائه البعيد من القريب»[42] ، وفي الالتفات ذكر أنّه من الأساليب التي تزيد «من تنشيط السّامع، واستجلاب صفائه»[43]. وجاء قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ سورة النساء، الآية: 58 بوضع الظّاهر(الله) موضع المضمر قصد تربيّة المهابة وإدخال الرّوعة في ضمير السّامع[44].

وأشار الإمام الزّركشي في فوائد الحذف إلى «زيادة لذّة بسبب استنباط الذّهن للمحذوف، وكلّما كان الشّعور بالمحذوف أعسر، كان الالتذاذ به أشدّ وأحسن»[45].

ويلجأ القرآن إلى التّعليل – على رأي الإمام الزّركشي- لأنّ ذلك أقدر على تقبّل النّفس للأحكام المعلّلة بخلاف غيرها[46].

ومهما أوردت من أمثلة للبلاغة القِيميّة (الفنّية) على مستوى المتلقّي، إلا أنني أعلم يقينا بأنّها لا تشكّل إلاّ نزرا يسيرا ممّا ورد في بحث البلاغة القرآنيّة لدى الإمام الزّركشي، وحسبي أنّني لا أقصد التتّبع والاستقصاء، بل إيصال المفهوم من خلال تلكم الطّائفة من الأمثلة.

وعند الحديث عن الأغراض التّأثيرية لمصطلحات البلاغة القرآنيّة ضمن بنية النّصّ القرآنيّ، نجدها تتعلّق ببنية النّصّ القرآنيّ وتخدمه، كل ذلك في بناء معجز محكم، فأسلوب القرآن إنّما هو مادّة الإعجاز العربي في كلام العرب كلّه – على حدّ تعبير مصطفى صادق الرافعي- فاللّفظة فيه موضوعة وضعا دقيقا لا يصلح السّياق ولا يستقيم المعنى إلاّ بها «كأنّها خُلقت لذلك المعنى خلقا، وأُفرغت عليه إفراغا، حتّى لا يناسبه غيرها فيما يلتئم على لسان المتكلّم»[47] ، وقد أشار الإمام الزّركشي إلى أهمّ الأغراض الفنّية لبلاغة بنية النّص القرآنيّ، من ذلك ما ذكره في باب التّقديم والتّأخير في القرآن الكريم، فقد أشار إلى أنّه يقدّم الشّيء لإظهار الاهتمام به، مثل قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ سورة الفاتحة، الآية: 05، فقدّم العبادة للاهتمام بها. وقد يكون لمناسبة السياق ومنعا للإخلال بالمقصود، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ**﴾ سورة المؤمنون، الآية: 33، بتقديم الحال ﴿ **مِنْ قَوْمِهِ**﴾ على

الوصف ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو تأخر لتُوُهّم أنه من صفة الدنيا...وحينئذ يشتبه الأمر في القائلين أنّهم: من قومه أم لا ؟ [48].

وفي حديثه عن الكناية أشار إلى أسباب لجوء القرآن لاستخدامها وذكر منها: ترك اللّفظ إلى ما هو أجمل منه، وترك التّصريح ممّا يستقبح ذكره لأنّ القرآن منزّه عن ذلك[49].

وفي مبحث الإيجاز أبرز الإمام الزّركشي متانة الأسلوب القرآني وإعجازه في بناء جمله التي تنطق رغم وَجازتها بما تعجز عنه عشرات الصّفحات، ومنه قوله تعالى:﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ سورة الأعراف، الآية: 199، فهذه جمعت مكارم الأخلاق كلّها.وقوله تعالى: ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ سورة هود، الآية: 44.

«كيف أمَر ونهى، وأخبر ونادى، ونعَت وسمّى، وأَهْلك وأبْقى، وأَسْعد وأَشقى، وقصّ من الأنباء ما لو شُرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللّفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفّت الأقلام»[50].

ولو سرنا في تتبع الإمام الزّركشي في بحثه للبلاغة القرآنيّة لتطلب ذلك فيضا من الصفحات لا يتّسع لها المقام هنا لذا اكتفينا بالإشارة الدّالة لتوضيح ما جاء به مبسطا عنده، إذ النّصّ القرآنيّ لا يوظّف أسلوبا ولا يستخدم فنّا إلا لغرض إبلاغيّ، وليس لدراسة مباحث البلاغة فيه أيّ قيمة إن لم تقرن بإبراز الأغراض التي سيقت لأجلها.

6- شواهد البلاغة القرآنيّة في كتاب "البرهان":

دارت شواهد البلاغة في كتابه " البرهان" – في معظمها- حول الآيات القرآنيّة، ذلك أنّ « الشّاهد القرآني هو المثل الأعلى في كتب اللّغة العربية، وهو رأس شواهد البلاغة التي كانت استجابة للحياة الفكريّة التي استظلّ بها العرب والمسلمون بعد نزول كتاب الله بلسان عربي مبين»[51] ، وقد استشهد الإمام الزركشي بالشّعر لكنّه لم يركّز عليه كثيرا إذ بلغت شواهده الشّعريّة في هذا السِّفر مائة وواحدا وعشرين(121) شاهدا شِعريّا، ولعلّه في ذلك يسعى إلى تعزيز هذه المفاهيم وتبيّنها عبر النّصّ القرآنيّ فحسب، وليس ذلك عجزا منه في التّمثيل لمصطلحات البلاغة.

وتعامل الإمام الزّركشي مع الشواهد القرآنيّة بطريقتين:

الأولى: أورد هذه الشّواهد أمثلة لمصطلحات البلاغة وأقسامها دون إشارة إلى المعنى المرتجى من الفنّ البلاغيّ في تلك الآية، -وهذا قليل في كتابه- ولعلّ قصده من وراء هذا أن يشحذ همّة

القارئ ليتدبّر ويجتهد،مثال ذلك ما وقفنا عليه في باب "ردّ العجز على الصّدر وعكسه"[52] ، فقد استشهد بقوله تعالى: ﴿**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**﴾ سورة الأنبياء، الآية: 37 ، وقوله عزّ وجل:﴿**وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾ سورة المائدة، الآية: 96 ، و لكنّه لم يشر بعدهما إلى المعنى ولم يقدّم شرحا للشّاهد.

الثّانية: تناول النّصّ القرآنيّ بتوجيه وتحليل وبيان للأثر الفنّيّ الإبلاغيّ الذي أضفاه المصطلح البلاغيّ في النّصّ؛ وهو في ذلك على اتجاهين: اتجاه يكتفي بالإشارة إلى الغرض الفنّيّ من المصطلح، ومثاله ما أورده من شواهد على أغراض التّعريض[53] : كالتلطّف في قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ سورة سبأ، الآية: 25 وذمّ من ليست له هذه الخشية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**﴾ سورة فاطر، الآية: 18..

والاتّجاه الآخر يتناول الشّاهد بالتّحليل والتّوجيه متتبّعا أسراره وشوارده، من ذلك ما أورده في مبحث الفواصل ورؤوس الآي عندما ساق أمثلة عن "التّمكين" ومنها قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾سورة الحجّ، الآية: 63، 64.

إلى قوله: ﴿**لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ سورة الحجّ، الآية: 65 ، قال الإمام الزّركشي: « إنما فصّل الأولى ب" **لَطِيفٌ خَبِيرٌ** " لأنّ ذلك في موضع الرّحمة لِخلقه بإنزال الغيث وإخراج النّبات من الأرض، ولأنه خبير بِنفعهم، وإنّما فصّل الثّانية ب" **غَنِيٌّ حَمِيدٌ** " لأنّه قال:" **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**"، أيْ: لا لحاجة؛ بل هو غنيّ عنهما، جواد بهما، لأنّه ليس غنيٌّ نافعا غِناه إلاّ إذا جاد به، وإذا جاد وأنعم حمِده المُنعَم عليه، واستحقّ عليه الحمد؛ فذكر"الحمد" على أنّه الغنيّ النّافع بغِناه خلقَه. وإنما فصّل الثّالثة ب"**رَءُوفٌ رَحِيمٌ**" لأنه لما عدّد للناس ما أنعم عليهم من تسخير ما في الأرض، وإجراء الفلك في البحر لهم، وتسييرهم في ذلك الهول العظيم، وجعله السّماء فوقهم وإمساكه إيّاها عن الوقوع، حسُن ختامه بالرّأفة والرّحمة»[54].

وهكذا يقدّم لنا الإمام توجيها موفّقا وتحليلا شافيا لبعض شواهده القرآنيّة ساعيا من وراء ذلك إلى تلمّس أسرار استخدام المصطلح البلاغيّ فيها.

7- خاتـمة :

بعد الجولة في رياض "البرهان" يمكننا أن نجمل سمات البحث البلاغي فيه في النقطتين الآتيتين:

أ- امتزاج القضايا البلاغيّة بموضوعات علوم القرآن.

ب- عدم تمييز علوم البلاغة الثّلاثة (المعاني، البيان والبديع) عن بعضها.

هذا بمقياس منهج اليوم، أمّا إن عدنا إلى عصر الإمام فنجده لم يخرج عن المنهج المتعارف عليه آنذاك، حين كان العالم يلمّ بأنواع من العلوم ، ويؤلف في شتى الفنون، والإمام الزّركشي يمثّل صورة العالم الموسوعيّ، والنّاقد الموضوعيّ، صاحب التّفكير العميق.

أما ما يمكن أن نستخلصه حول الإمام الزركشي من خلال كتابه البرهان في علوم القرآن فيتجلى في الآتي:

أ- المؤسوعيّة: كان الإمام عالما موسوعيّا، على قدر كبير من الثّقافة، والإلمام بعلوم من سبقوه ومن عاصروه، ولأدلّ على ذلك كثرة مؤلّفاته من جهة، وغزارة عطائه المعرفيّ من جهة أخرى، فنجده في "البرهان" قد تعدّدت منابعه، يأتي في كلّ موضوع منه رياضا من الآراء، وفنونا من الفكر، في التّفسير والنّحو والبلاغة، مضيفا إليها من بنات أفكاره وغزير علمه.

ب-النّقد: يبرز الإمام الزّركشي في كتابه "البرهان" ناقدا بصيرا، يقف عند الأقوال، ناقدا مرجّحا ومصحّحا، وهذا ما يكشف رسوخ قدمه في المجال النّقديّ البلاغيّ، إذ يقدّم البراهين والأدلّة على ما يطرحه من آراء نقديّة؛ وكثرت نقوده – على وجه الخصوص- لآراء الإمام الزّمخشريّ (ت 538هـ). من ذلك ما قاله ردّا على مقالة الإمام الزّمخشري في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ سورة آل عمران، الآية: 77، حين قال الإمام الزّمخشري:«إنّه مجاز عن الاستهانة بهم، والسّخط عليهم»[55]. فنَقَده الإمام الزّركشي بقوله:« وهذا بناء منه على مذهبه الفاسد في نفي الرّؤية، وفيه تصريح بأنّ الكناية مجاز»[56]، وفي الاستفهام التّقريريّ الذي جعل الإمام الزّمخشري منه قوله تعالى:﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ سورة البقرة، الآية: 106،يقول الإمام الزّركشي:«وقيل: أراد التّقرير بما بعد النّفي لا التّقرير بالنّفي، والأَوْلى أن يجعل على الإنكار، أيْ، ألم تعلم أيّها المنكر للنّسخ!»[57].

هذه بعض الانّتقادات التي وجّهها الإمام الزّركشي إلى الإمام الزّمخشري تصويبا وترجيحا.

ج–الموضُوعيّة: هي المقياس السّليم للأحكام النّقدية الجمالية، وتعني «التّجرّد من الأهواء والآراء الشّخصية والدّوافع الخاصّة»[58] .

وتحرّى النّزاهة، وهذا أمر لم نعدمه عند الإمام الزّركشي، وأبرز ملامح الموضوعيّة عنده: الأمانة العلميّة في نسبة الآراء إلى أصحابها، وكذا الدّقة في إصدار الأحكام النّقديّة؛ من أمثلة ذلك قوله: قال الرّماني في كتاب "إعجاز القرآن"...[59] ، وتبعه القاضي أبوبكر الباقلاّني في كتاب "إعجاز القرآن"...ردّ عليه الخفّاجي في كتاب "سرّ الفصاحة"...[60].

د–الذّوق الأدبيّ الفنّي: لا يمكن الاستغناء عنه في مسائل النّقد والجمال، إذ به تتأثّر الأحكام الجماليّة النّقديّة، والذّائقة الفنّية هي أداة الحكم الجمالي على الأشعار[61]، فهو« ملكة لا غنى عنها للنّاقد تمكّنه من التّعرّف على مواطن الجمال والقبح فيما يعرض له من النّصوص»[62].

ونظرة متأنّية في كتاب "البرهان" تكشف لنا أنّ صاحبه اتّسم بالتّحليل الأدبيّ لكثير من القضايا البلاغيّة، كالتّقديم والتّأخير، والحذف، والالتفات، والفواصل... وهو ما أبان عن ذوقه الفنّي الرّفيع، وانتمائه إلى المدرسة الأدبيّة، داحضا مقولة أنّ البلاغة بعد السكّاكي (ت626 هـ) أصابها الوهن.

ومحصّلة القول: إنّ الإمام الزّركشي يتجلّى جهده واضحا في "البرهان" في توظيف المصطلح البلاغيّ من أجل الكشف عن جماليّات القرآن العظيم، بعيدا عن التّعريفات والتّقسيمات– إلاّ نادرا–، فقد وفّق في ضمّ أجزاء هذه المباحث وتجليّة مراميها، معتمدا في ذلك على أرباب هذه الصّناعة، متمكّنا من الإحاطة بمفرداتها وتقديمها لقرّائه ضمن سياقاتها في سفره "البرهان في علوم القرآن".

هوامش:

[1]– بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: المنثور في القواعد، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ج1، ص:03.

[2]– بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، ج1، ص: 25.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص: 23.

[4]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان في علوم القرآن، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2012، مج1، ج2، ص: 223.

[5]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 289.

[6]- المصدر نفسه، مج1، ج2، ص: 289.

[7]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج2، ص:290.

[8]- ينظر: المصدر نفسه، ص: 290- 297.

[9]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج2،ج3، ص: 207.

[10]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 233، 234.

[11]- أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب ،تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، مج2، مادّة (ح ر س)، ص: 833.

[12]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 47.

[13]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 47.

[14]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 47، 48.

*- ذو الرّمّة: هو عيلان بن عقبة العدويّ، شاعر من فحول الشعراء في عصره، أكثرُ شِعره تشْبيب وبُكاء أطلال، امتاز بإجادة التّشبيه.

[15]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 48، 49.

[16]- ينظر: نزار قبيلات: ملاحظات على كتاب" كيف نقرأ تراثنا البلاغي" للأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، مقال مُتاح من موقع: Kenanaonlin.com،

[17]- أبو الفضل جمال الدين بن منظور، لسان العرب، مج6، مادّة (ن س ب)، ص: 4405.

[18]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 48.

[19]- المصدر نفسه: مج1، ج1، ص: 48.

[20]- ينظر: المصدر نفسه، مج1، ج1، ص: 48.

[21]- ينظر: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان: مج1، ج1، ص: 50، 51.

[22]- ينظر: المصدر نفسه: مج1، ج1، ص: 51، 52.

[23]- المصدر نفسه: مج1، ج1، ص: 56.

[24]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1،ج1، ص: 56.

[25]- سورة الأعراف، الآية: 26.

[26]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 58.

[27]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 58.

[28]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 58.

[29]- المصدر نفسه: ، مج1، ج2، ص: 112.

[30]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 125.

[31]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 125.

[32]- المصدر نفسه، مج1، ج2، ص: 112.

[33]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان ، ص: 112.

[34]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 112.

[35]- بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: المصدر السابق، مج1، ج2، ص: 16، 17.

[36]- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد سالم هاشم، دار الكتاب الحديث، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص: 510.

[37]- جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ص: 510.

[38]- ينظر: جلال الدين السيوطي: المصدر السابق، ص: 510، 511.

[39] - محمد بركات حمدي أبو علي: فصول في البلاغة، ص: 182.

[40]- ينظر: نزار قبيلات: ملاحظات على كتاب" كيف نقرأ تراثنا البلاغي" للأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، مقال محمّل من موقع: Kenanaonlin.com.

[41]- مصطفى صادق الرّافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص:159.

[42]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 253.

[43]- المصدر نفسه: مج2، ج3، ص: 203.

[44]- ينظر: بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 293.

[45]- المصدر نفسه: مج2، ج3، ص: 74.

[46]- ينظر: المصدر نفسه، مج2، ج3، ص: 65.

[47]- مصطفى صادق الرّافعي: المرجع السّابق، ص: 142.

[48]- ينظر: بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 151.

[49]- ينظر: المصدر نفسه: مج1، ج2، ص: 177- 180.

[50]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 147.

[51]- أحمد مطلوب: بحوث بلاغية، مطبوعات المجمع العلمي، بغداد، العراق، د.ط، 1996، ص: 160.

[52]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج2، ج3، ص: 282، 283.

[53]- ينظر: بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 184.

[54]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 75، 76.

[55]- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي:الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2009،ص:178.

[56]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 182.

[57]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج2، ص: 195.

[58]- صالح بلعيد: في المناهج اللغوية وإعداد البحوث، دار هومه، بوزريعة، الجزائر، د.ط، 2005، ص: 76.

[59]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 61.

[60]- بدر الدّين محمد بن عبد الله بن بهادر الزّركشي: البرهان، مج1، ج1، ص: 63.

[61]- ينظر: عيسى علي العاكوب: التّفكير النّقدي عند العرب،دار الفكر، دمشق، ط1، 1997، ص: 121.

[62]- محمّد زغلول سلام: تاريخ النّقد الأدبي والبلاغة، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، د.ط، د.ت، ص: 14.